﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

مِفْتَاحُ الرَّحمة

مِفْتَاحُ الرَّحمة

هـو مِفتاحُ بَابِ اللهِ الأوَّل الذي مَنْ طرَقَه فُتِحَ له، ومَنْ أعرضَ عنه نُودِيَ عليه، ثُمَّ نُودِيَ عليه، ثُمَّ نُودِيَ عليه، ثُمَّ إذا لم يُصغِ لِنِداءِ الرحمة تُحُسِّـرَ عليه، فاللـه عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الخلـقَ بالرحمة، وخلقَهُم للرحمـة، ورزقَهُم بالرحمـة، وهدَاهُم إليه بالرحمـة، وطلبَ منهم أنْ يعبـدُوه بالرحمة، حتى إذا ضلُّوا وكفروا ناداهم بالرحمة، وجدَّدَ عليهم النداء بالرحمة، ووسَّعَ عليهم أبوابَ الرحمة، عسى أنْ يتوبوا فينالـوا الرحمـة، ولم يجعل لإنسـانٍ البتـة اليأس مِـن رحمتِه حتى يُغَرغرَ، أو تطلعَ الشمس مِن مغربها.

ولمـا كان مِـن معاني قوله (الحَمْـدُ لله) هو احمـدوا الله حقَّ حمْـدِه، وكان العبـاد عاجزين عـن أنْ يوفُّوا ربَّهم حقَّـه في الحمْد؛ أتْبَع ذلك بقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ومِن مقتضيات رحمته أنْ يقبلَ مِن العمل اليسير ويُجازي عليه الكثير فيقبلُ مِن عبْدِه أنْ يقولَ بقلبِه ولسـانِه وجوارحِـه (الحَمْدُ لله) ويكون ذلك أفضـل ما أنعمَ اللهُ به

علـى العبد أنْ وفَّقـه للحمْد، بل إنَّ توفيقه للحمْـدِ نعمة تحتاج إلى حمْد، فكيف سيُوفِّي ربَّه حقَّه إن لم يقبله منه برحمته وفضله وعفوه وتجاوزه لأنه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

فبابُ الرحمةِ هو أوسعُ الأبوابِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ على الإطلاق، فوصَفَ اللهُ نفسَه بـ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وهما اسمان مِن أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، ونُورَان مِن أنوارِهِ العُلَيا؛ لِيعلم العباد جميعًا أنَّ رسالةَ اللهِ إليهـم (القرآن) إنما هو مِن أوَّله لآخـره رحمة، لأن البدء يدل على فحـوى الـكلام إذا كان المتكلم عالمًـا بأصولِ البيـانِ والفصاحةِ، وليـس أحـدًا أعلمُ باللغـةِ مِن خالقِهـا ومُبدعِها، والقـرآنُ نزل بلُغة العرب فلمَّا بدأ اللهُ كتابَه بالبسـملةِ وزيَّلها بـ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ دلَّ ذلـك على أنْ القرآنَ بحلالِـه وحرامِه وأحكامِه وحدودِه وشـرائعِه وتعاليمِه ووُعـودِه ووعيدِه؛ رحمة للعالميـن إذا اتَّبعوه وعَمِلوا بما فيـه، فهو في كل الأحوال رأس الرحمة مِـن الله التي أنزلها للعباد، فبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ صَارَ محمدٌ رحمةً للعالميـن، وبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ صَارَ أصحابه أيضًا على قدر حُلُولِ القرآن فيهم رحماء بينهم، وشهد الله لهم بذلك، وبهذا القرآن الذي هو رأسُ الرحمةِ مِن الله عَزَّوَجَلَّ تصير الأمَّة في تراحُمها كالجسد الواحد.

وكُلُّ خيرٍ أنْعَمَ اللهُ به على هذه الأمَّة منذ رسول الله ﷺ فأصحابه مِن بَعده، فالتابعين، فالراسخين في العلم عبر التاريخ حتى اليوم، فالذين سيأتون بعدَنا مِن أهل العلم والفضل؛ كُلُّ أولئك وما وُفّقتْ إليه الأمَّة قديمًا وما تُوفَّق إليه اليوم، وما ستوفَّق إليه غدًا؛ كُلُّ ذلك داخِلٌ ضمن الرحمة التي جاءت مِن رحمة القرآن الكريم.

وللإشارة فقط اقرَءُوا سورة الكهف، وتحديدًا قصة موسى والعبد الصالح: ففيها كل فعلٍ مِن الأفعالِ التي قام بها ذلك العبد الصالح، والتي تظهر في ظاهرها أنها شيء فظيع، وذلك ما جعل سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يستنكرها، تلك الأعمال كلّها في النهاية خُتِمَتْ بقوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢].

- ◇ في النهاية: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- ◇ قتل الغلام: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- ◇ خرق السفينة: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.
- ◇ إقامة الجدار: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

لذلك ينبغي أنْ نفهمَ أنَّ أسماءَ اللهِ الحُسنى وصِفَاتِه العُليا كلها تندرج تحت صفة الرحمة، ولذلك كان افتتاح القرآن بعد اسم الله الأعظم بصفة الرحمة، لأنَّ القرآن نفسَه صدرَ عن هذه الرحمة، لأنَّه

هو محْضُ رحمة، وإذا حلَّ في عبدٍ صار ذلك العبد رحْمَةً على قَدْرِ حلـول رحمة القرآن فيه، أي على قدر صيـرورة القرآن خُلُقًا له، ثم الناس بعد ذلك على حسـب درجاتهم في التخلُّق بالقرآن يصيرون كذلك درجاتٍ في رحمانِيَّتهم.

إنَّ الرحمـة فـي أُفُقِهـا الواسـع وامتدادهـا المطلـق صفة رب العالمين الذي سـمَّى نفسَـه رحمانًـا رحيمًا، وجعل رحمتَه تسـبقُ غضبَه، وشـمَل بها كل المخلوقات، ولذلك أراد الإسـلام أن يطبع النـاسَ بالرحمة الشـاملة، وأن يغـرس جذورَها فـي قلوبهم، حتى تمتلئ هذه القلوب خيرًا ونورًا، كما أمر الإسلام بالتراحم العام بين سائر العباد، وجعل ذلك مِن دلائل تمام الإيمان وكمال اليقين، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

«لَنْ تُؤْمِنُوا حتى تراحمُوا قالوا: يا رسـولَ اللهِ كلُّنا رَحِيمٌ، قال: إنَّهُ ليس بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صاحبَهُ، ولَكِنَّها رَحْمَةُ العَامَّةِ»(١).

فليس المطلوب منك أيها الحبيـب الرحيم؛ أن تقصُرَ الرحمة علـى مَن تعـرف مِن قريـب أو صديـق، ولكنها رحمةٌ تسـع النَّاس أجمعيـن، بـل وتصل إلى الشـجر والطيْـر والدوابّ، وقـد ثبت في سـيرة الحبيـب النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّـه كان رحيمًا بالنَّـاس، وحتى

(١) نقله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وحكم عنه بأنه: رجاله ثقات.

بالحيوانات والجمادات وباقي المخلوقات، فمِن هنا نفهم أنَّ الإسلامَ يوسّع آفاق الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة مِن الحياة، وعددًا كبيرًا مِن الأحياء، وحتى يتحقَّق وعد الله تعالى الذي أخبر به رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

فالرحمة صفة ربَّانيَّة عظيمة، وخَصلة نبويَّة كريمة، وعاطفة إنسانيَّة نبيلة، تبعث على فعل الخير، وتدفع إلى بذل المعروف، وتحث المؤمنين على التعاون والتضامن والإيثار، وتغرس في قلوبهم الرقَّة والرأفة والحنان، والرفق والعطف والإحسان، وتحقِّق فيهم الأخوَّة الصادقة التي أرادها الله تعالى بقوله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات: ١٠].

فأين الرحمة ممَّن يحملُ في قلبِه حقدًا وحسدًا وبُغضًا لإخوانه المسلمين؟

أين الرحمة ممَّن يؤذي النَّاس في بيْعِهم وشِرائهم؟

أين الرحمة ممَّن يحقّر النَّاس ويزْدريهم ويسخَر منهم؟

---

(١) صحيح الترمذي.

أين الرحمة ممَّن يؤذي المسلمين في أموالِهم بالسَّلبِ والنَّهْبِ والغِش والخديعة؟

أين الرحمة ممَّن يؤذي المسلمين في دمائهم وأنفسهم بالاعتداء والقتل وسفك الدماء؟

أين الرحمة ممَّن يؤذي النَّاس في أعراضِهم بانتِهاكِها والخوض فيها بالباطل؟

أين الرحمة بين العباد؟

فمِن النَّاس مَن يشبَع وجارُه جائع، فأين هي الرحمة؟

ومنهم مَن يلبَس أفخر الثياب وجارُه لا يجد ما يستر به عورته، فأين هي الرحمة؟

ومنهم مَن يمتلك العقارات الشاهقة، والناس ينامون على الأرصفة، فأين هي الرحمة؟

فأين هي الرحمة التي أتى بها نبيُّ الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ وأين هو منهج الإسلام في التراحم بين المؤمنين؟

ومِن أحوج النَّاس إلى رحمتِك إخوانُك، أخواتُك، أقرباؤك، تفقَّد حوائجهم، صِلْ رحمَهم، لا مِن باب القرابة، ولكن مِن باب

الطاعـة والقربة والمحبة وابتغاء مرضاة اللـه ورحمته جَلَّوَعَلَا، ففي الحديـث الصحيح قال رسـول اللـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**قال اللهُ: أنـا اللـهُ وأنا الرحمنُ، خلقْتُ الرحِمَ وشَـقَقْتُ لها مِنِ اسْـمِي، فمَنْ وصَلَهـا وصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَهـا بَتَتُّهُ**»[1]، فكل ما تُقدّمـه لقرابتِك إنما يكون عن رحمةٍ أسكنها الله في قلبك.

ومِن آثارِ الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك:

الرحمـة بالعصـاة والمُذنبيـن، فإنهـم يحتاجـون إلـى رحمـة التوجيه والهداية لطاعة الله، فهناك أناس مُذنبون عليك أنْ ترحمَهم وأنْ تأخـذَ بمجامع قلوبهم فتدلهـم على رحمة الرحمن تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وتحبّبهـم فـي طاعة اللـه ومرضاته ورحمتـه، وهذا مِـن أعظم آثار الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك..

أن تحـرص على هداية العصـاة المُذنبيـن وإصلاحهم، تفعل ذلك وأنت تتمثَّل قول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنا رَحمةٌ مُهدَاةٌ**»[2].

---

(١) صحيح ابن حبان.

(٢) صحيح الجامع.

ومِن آثارِ الرحمة التي أسكنها الله في قلبِك:

الرحمة بالفقراء والمحتاجين والضعفاء والأرامل والأيتام فلقد كانت رحمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الفئة من النَّاسِ؛ رحمةً نافعة لا ميز فيها، رحمة جالبة لكل خير، تهدف إلى إسعادهم سعادة حقيقيَّة لا زيف فيها ولا تزوير، حيث كان يأتي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ضعفاءهم ويعُودُ مرضاهم، ويقضي حوائجهم، ويشهدُ جنائزهم.

وهذه هي رسَالةُ الإسلامِ في حقيقتِها، وهذا هو رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حقيقته، إنَّ السببَ الذي جمعَ الناس حول رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليس أبدًا قوَّة السلطان، ولا سَطوة السّلاح؛ إنما الذي جمعهم حقيقةً - كما ذكر ربُنا جَلَّ جَلَالُهُ - هو رحمة الله التي ألَانَتْ قلبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حيثُ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

واعلم أنه لا ينافي عموم رحمته ما يجريه على خلقه مِن النكبات التي هي عقوباتُه القدرية، ولا ما يفرضُه عليهم مِن العقوبات الشرعية، فإنها كلها رحمة وعدل اقتضته حكمته تأديبًا للجُناة ورحمةً بهم، وبمَن جنوْا عليه، وإيقاظًا للعُصاة الذين فرَّطوا أو أعرضوا عن شريعة الرحمن وهدي نبيِّ الرحمة عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبسبب انتزاع الرحمة، قسَت القلوب، وتحجَّرت الأفئدة، وفَسَقَ النَّاسُ عن أمر الله، وانحرفوا عن الطريقِ القويمِ والصراطِ المستقيم، فكان ذلك مانعًا رئيسيًّا مِن الموانع التي حالت دون تنزُّلِ الرحمات والبركات مِن رب الأرض والسموات، فهلَّا استيقظنا مِن نوْمتِنا؟ وهلَّا قُمنا مِن غفلتِنا؟ وهلَّا صحونا مِن سكرتِنا؟

ولذلك كلُّ شيءٍ أنت في حاجةٍ إليه، أيها العبد، من الأول إلى الآخر، من أمور الدنيا ومن أمور الآخرة، تجده في باب الرحمة، دُق الباب، يُفتَح لك، فلن ترجع إلا بوافر مِن رحمة الله الرحمن الرحيم، هذا الإحساس أيها المؤمنون لا ينبغي أن يفارقنا ولو لحظة واحدة، وحين تعيش به تعرف حقيقة ثمن الإيمان الذي لا يُقدَّر، وثمن القرآن الذي لا يُقدَّر، وألَّا شيء يعدل إيمانك بالله ومحبتك لله وسَيْرك إلى الله جَلَّجَلَالُهُ.

الرحمةُ إذن أيُّها المُتدبِّر الكريم في خاتمة الكلام هي كلُّ ما نُشاهدُه في حياتنا نحن -المسلمين- من الخير ومن الشر الذي هو ظاهرٌ لنا، أمَّا باطنه فهو الرحمة، المصائب التي تقع للأفراد وللجماعات وللمؤسسات، المشاكل كلها هي لطمات كما ذكرنا من الرحمة الربانيَّة توقظ الإنسان، توجعُه أحيانًا، ولكن لتداويه وتشافيه وتقربه، ولذلك أي شيء في حياتك أيها العبد وجب أن

تتقبله بالرضى، بالمحبة، يعني ما أصابنا مِن الله فهو خير، لمَ؟ لأَنَّك علـى يقين أنَّ ربَّك لا يؤذيك فهو ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ما خلقك إلا للرحمة وبالرحمة، ومـا دُمْتَ تؤمنُ بالله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فاعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لن يأخذك إلا بالرحمة.